الجثة

قصة

بقلم احمد محمود زين الدين

تراءت له القلعة الصغيرة من بعيد مزروعة في تراب التلة الاحمر. كان لا يتبين الا هيكلها الاعلى ، وكانت رائحة الارض البكر تنتشر في انفه والصخور البنية تتشبث بقوة بأرض التلة . العرق يتصبب بغزارة منه والقميص الابيض يلتصق بجسده اللزج . رائحة العرق تنبعث من بين ابطيه وقرص الشمس المتوهج يلتصق في السماء اللامتناهية . كان يغرز حذائيه الصلبين في التراب في كل خطوة يخطوها بحذر على سفح التلة . لا اثر للخضرة هنا ، لكن في الافق يمتد بساط اخضر.

كان يحس بأن الارض تنبض تحت قدميه .

ان باستطاعته الان ان يميز مدخل القلعة الضيق والمجوف . توقف فجأة . احس بنبضات قلبه تدق بسرعة كمطرقة تدق لوح صفيح. تفصد جبينه بعرق غزير . وتحسس في وسط طوق الجلد الذي يمنطق به نصل السكين الحاد .

الان باستطاعته وهو واقف هنا خلف هذه الصخرة العالية ان يرى كل شيء . وجه ناظريه نحو باب القلعة . لا شيء يتحرك خارجها حتى الان . وحوله لا شيء ينم عن حركة او نأمة . ارتاحت نفسه قليلا وخفت نبضات صدره على حين كانت عيناه معلقتين على مدخل القلعة .

هل ترك آل (ن) احدا يحرس الجثث ؟ وماذا تنفع هذه الجثث؟ يكفي انهم ازهقوا الشعلة التي فيها !

لكن امك العجوز الحت عليك ! الحاحها غريب حتى في ساعة المحنة : يجب ان تحصل على جثته ولو تعرضت للتهلكة . ولو اصبحتا جثتين هامدتين .

بكاؤها بالرغم من الحافها وعنادها السلبي ، ماذا فعلوا بالجثة؟ ربما شوهوا ملامحها وسمانها او مزقوها اربا . او ربما قطعوا اوصال ذلك الجسد الآدمي . او ربما لن تميزها عن بقية الجثث الملقاة .

يجب ان تظل متأهبا لكل طارىء فلم تمض الا ليلة واحدة على الحادث . والحادث ليس نزوة عابرة .

كان بود امك ان تشتمك وتلعنك . لقد بدوت لها هيكلا آدميا فارغا من اي محتوى . لو كنت بنتا لكان ذلك اشرف . ألم تحس بذات نفسك انك ابله وغير جدير بالحياة الحرة ؟

لقد كنت متوهما حين حاولت تبرير فعلك بأنه في سبيل البقية الباقية من امك كي لا تصاب بمصيبتين اثنتين . لقد كان فعلك فعل خوف ونذالة . لقد تركت اخاك مع بقية الرجال بعدما تملك منك الجبن والخوف من السقوط بالرغم من قولك بأنك رجل كامل الرجولة. انك رجل فقط امام (س) . البهائم والحيوانات تمتاز بالرجولة على هذا المنوال . كل واحد يستطيع ان يضع عضوه بين فخذين لكنه قلما يثبت رجولته الحقيقية في المواقف الصعبة . تلك رجولة مزيفة أطلق عليها جزافا هذا الاسم وهذه رجولة حقة . لقد تغلبت عليك غريزة البقاء واضلتك عن واجبك ، عن قيمتك الانسانية . غريزة البقاء فيك كالغريزة الجنسية تثار في اي موقف .

في اللحظة الاخيرة كان عليك ان تصمد مثل بقية الرجال . لكن ما ان استفحلت الامور وتدهور الموقف حتى هربت كجرذ تحت جنح الظلام طالبا الماء والادام من اية قمامة . لكن الحقيقة ان الخوف كان عندك اقوى من طلب الغذاء .

كان بقية الرجال المزارعين العشرين يقاتلون بايمان اما انت فكنت تقاتل طلبا للنجاة . سيقول الناس انك جزوع ونذل مثل ابيك . الا تدري ان اخاك كما قال يحاول ان يرد كرامته وكرامة من معه وان كان ذلك على حساب حياته وحياتهم . لقد قلت لاعدائه آل (ن) الذين يملكون قطاعات كبيرة من الاراضي ان اخاك (م) مجنون ومعتوه . نعم هذه الجثة التي تريد ان تحصل عليها او بالاحرى التي تريد ان تحصل عليها امك العجوز كانت في يوم ما لرجل مجنون . لا يفهم . ولا يدري ماذا يفعل . لقد قلت عنه ايضا في مرة اخرى انه مغرور : نعم انه مغرور . انا اكبر منه سنا وادرى منه بالامور وجواهرها . انه يريد ان يسوّد وجهنا معكم . لعنة الله عليه . انه منذ ان شب وهو يثير بيننا وبينكم مشاكل لا حصر لها . انه يتمرد ويحاول ان يثير الفلاحين معه . لكم قلت له ان يركن للسكينة لكنه ذو خسة وضعة نفس .

وعندما هددوا بقتله اذا ما استمر في اثارة المتاعب بينهم وبين الفلاحين لم يكن جوابك يختلف عن سابقيه بالرغم مما يحمله هذا التهديد لاخيك من هدر لكرامتك وشخصك .

ها هو الان ملقى هناك جثة هامدة لا حراك فيها ولا حياة . وها انت ما زلت متمتعا بنشاطك وقوتك وقدرتك الجنسية في مواجهة (س) وفي مضاجعتها ليلة كاملة دون ملل . لماذا يعيش الانسان ؟ أليس ليحقق رغباته المكتومة ؟

اخوك (م) لم يعرف من اين تؤكل الكتف . كان يزج بنفسه في قضايا لا تهمه .

لماذا ؟ ردا للكرامة ! واية كرامة في ان نواجه طابورا من اغنياء آل (ن) ورجالهم المسلحين ونلقى مصرعنا في ليلة مدلهمة ونختنق في جحر كالفئران دون طعام او ماء طيلة اربعة ايام كاملة . انه التهور !

ان نتحول في ساعات من شباب يضجون بالحياة وتجري في عروقهم دم الرجولة الى جثث هامدة نتنة . لكم تصورت قامة (م) العامرة بالشباب والحياة جثة كجذع شجرة هرمة وكبيرة تسد باب القلعة الصغير .

لقد قلت للعجوز بأنه لا داعي لان اخاطر لآتي بالجثة : ما نفع جثته يا امي بعد ان لقي مصرعه ؟

ـ اريدها ولو كانت اربا . اريد ان اراها .. اراها .. اراها.. اتسمع ؟

دائما هذه العجوز ملحاحة ، ملحفة وعنيدة . انها شبيهته . لقد قلت له مرارا بأنك عنيد مثل امك ، متمرد ، لا تفهم كيف تعيش .

لقد ظل عنيدا حتى في احلك المواقف واصعبها .

كان استون بندقيته يطل من خلال فجوة في جدران القلعة كبقية البنادق العشرين ليلا ونهارا . وكان سريع الحركة . يقفز كالقرد حين ترمينا بنادق آل (ن) لتهيئة الذخيرة للرجال : عليكم ان تصوبوا جيدا نحو اهدافكم من رجال آل (ن) اولئك الذين يفتنون من اجسادكم وعرقكم .

ويقرفع السلاح من الجانبين لاربعة ايام كاملة . وبعدها انجلت الوقيعة عن احدى وعشرين جثة قتلها الظمأ قبل ان يقتلها الرصاص.

لكم رجوت (م) في الليلة الاولى في ان لا يتمرد او يقاتل حفاظا على ماء وجهه . لكنه لم يقبل النصيحة . نصيحة اخيه الاكبر . واجلى امه الى قرية اخرى واجلى معها عشرين عائلة اخرى .

كان الرجال العشرون متحمسين مثله . كانوا اغرارا . ولقد استطاع ان يوغر صدورهم ويدفعهم لقتال آل (ن) مع ما لهؤلاء من حظوة عند الفلاحين دفاعا عن كرامة مزعومة .

لقد سمعت الكثيرين يقولون : لماذا يحاول ابن (ب) النذل ان يثير الاضطراب في القرى . فلا نريد احدا ان يقف بيننا وبين آل (ن) فنحن ادرى بمصلحتنا خاصة اذا كان ذلك المدافع عنا هو ابن (ب). لقد نبشوا لابيه (ب) سجلات نذالته المعهودة والمعروفة من السرقة الى بقية الرذائل . لقد قال جمع منهم انهم لا يريدون ان يدافع عنهم ابن (ب) هذا لانه نذل . ومتى كان الانذال في يوم من الايام يردون كرامة لانسان والضعة والجبن والخسة من طينتهم وجبلتهم .

يا اخي (م) اني ادرى بخفايا الامور واني اخاف عليك اذا ما اصررت على عنادك ونهورك ان تلقى ما لا تحمد عقباه . فهؤلا. قوم من الاشراف ومن علية القوم وليس باستطاعتنا مجابهتهم . كما انه ليس من مصلحتنا بشيء .

لكنه كان دائم السكوت ودائم الفعل والتمرد . لم يعر حديثي اي اهتمام او انتباه بل نمادى سادرا في غيه . وجرني في تلك الليلةالى القلعة من طوفي ككلب صيد ، ووضع في كتفي بندقية ذات استون طويل . كان عنيدا مثل امه . لقد قالت لي (س) ان اخاك يريد ان يوقعك في ورطة كبيرة لن تخرجوا منها سالمين . ونحقق ما قالته . لقد كانت (س) دائما جذابة ومغرية كما كانت ذكية .

هذه الورطة لم تنته بعد . حتى بعد موته . بعدما اصبح جثة كبيرة لا تتحرك .

الأم الملحاحة هناك والجثة الملقاة هنا في القلعة تحاولان ان نضعاني في ورطة جديدة .

كان عليه ان يتقدم ببطء وحذر شديد ليستطلع المكان فربما كان هناك داخل القلعة او حولها رجال من آل (ن) .

ماذا ينفع هذا الفعل او بالاحرى متى حاولت ان تقتل احدا حتى ولو كان يريد قتلك ؟ ان آثار قدميك خلف القلعة ما زالت مرسومة تدلل على شجاعتك في الركض . لكن ! اسهل علينا ان نركض من ان نتحول فجأة الى جثث لا حراك فيها فلا تشتهي او تتكلم .

كانت تلك الليلة عصيبة حال هذا اليوم . زادت حدة النيران على القلعة الصغيرة التي اوى اليها الرجال . وكان الرصاص ينهمر كرذاذ المطر . وكان رجال آل (ن) معروفين بمهارتهم في الرماية والقنص وكانوا شديدي الحيلة .

قرقع السلاح طيلة ساعات الليل الاسود وكان على الرجال داخل القلعة ان يصمدوا اطول فترة ممكنة متحملين الجوع والعطش الذي ينهش الاكباد . ونوقف الرمي قليلا وران الصمت ، لكن الرجال ظلوا متربصين وايديهم على الزناد . وجاء دوري في حماية باب القلعة. لكني احسست بأن التوقف عن اطلاق الرصاص من قبل رجال آل (ن) خدعة واحسست بالمقابل بالخوف وارتعدت فرائصي وخفق قلبي بعنف اقوى من ذلك الخفقان الذي كان يلازمني اثناء تبادل النيران بيننا وبين رجال آل (ن). وازدادت خفقات القلب لدرجة كبيرة حتى شعرت بجسمي ينتفض بكامله خاصة وان النيران ستنتهي بغزارة على باب القلعة اذا ما بدأ الرمي من جديد .

داخلني هذا الشعور وانا اضبط نفسي وقد تسللت الى خلف القلعة منبطحا على الارض واحسست كأن غيري كان يتسلل وكان يجازف طلبا للنجاة وهربا من الورطة . وما ان وصلت الى رأس الوادي حتى اندفعت الى المنحدر بسرعة غريبة وعجيبة .

كيف استطعت ان اتخلص من مراقبة الرجال في القلعة واتملص من رجال آل (ن) ؟ هذا لم ادركه ! كل ما كنت ادركه انني كنت اتحرك بغريزة حب البقاء والخوف من الموت ولم افقه اذا كان لبقية الرجال في القلعة قلوب غير قلوب من دم واعصاب . لقد ظل الرجال المزارعون في جوف القلعة .

وفي الصباح توارت الاخبار عن ذبح كل المزارعين في هذه القلعة ومعهم المتمرد الكبير (م) كما كان يحلو لي ان القبه .

هذه الجثة ! ماذا تريد العجوز ان تفعل بها ؟

أتريد ان تحفظها كمومياء تضعها عند باب المنزل ؟. كل ما نريد ان نقوله انها تريد الجثة لتراها ولو اصبحنا جثتين جامدتين بدلا من جثة واحدة ، كأنها ستعيد لها روحها وشبابها الذي ولي مع ذلك النذل .

حاول ان يرفع رأسه من خلف الصخرة العالية ، لكنه لمح فجأة رجلا مسلحا يقف على باب القلعة الصغير . فتطامن برأسه ثانية وزاد وجيب صدره وخفقان قلبه ، وبفصد العرق من جبهته السمراء والعريضة .

ورطة جديدة واعادة لتجربة دامية تخلص منها بصعوبة .

حاول ان يخفي جسده خلف الصخرة الصلدة والعالية كي لا يرى فيسهل اقتناصه . كانت كل حركة يقوم بها تصاحب في الجهة المقابلة حركة للموت .

هل عليك ان تلقى مصرعك لتسرق جثة ذلك الحيوان ؟ لقد مات ولفظ انفاسه !

وفجأة ارتطمت رصاصة بالارض بجانبه وانفرزت في التراب .

التصق وجهه بالارض وكانت انفاسه الحرى تختلط بعبق الارض والتراب . رائحة الارض طيبة ! هكذا كان له (م) . لو كان لك ان تشمها عن قرب لادركت رياها ولعرفت ان الموت في سبيلها سعادة لا تماثلها او تضاهيها سعادة في الدنيا . الارض طيبة !

تحرك ببطء وحذر . لا يهمه الان الا ان يحتمي من الرصاص بعدما انكشف امره وبان موضعه . الارض طيبة ووجيب صدره يدق بعنف.

مرت من امامه رصاصة اخرى . ارتفع الدم في رأسه بسرعة .

وقذف برصاصة ثانية قبل ان يتحرك فاخترقت صدره كسهم ناري . انبجس الدم القاني والحار بغزارة من بين ضلوعه . واحس بالحرارة والتمزق في احشائه .

تمسكت يداه في الارض بشدة وغرز اصابعه فيها بقوة .

تململ . لم يعد خائفا . بوده ان يرى الجثة .. الجثة .

بوده ان يقف لكنه لا يقوى على الوقوف .

خف التوتر في صدره وفي قلبه . وخف الوجيب . لم يعد صدره يضغط على الارض .. الارض الطيبة ... الارض دائما طيبة .

احمد محمود زين الدين